فيا ايها الذين زاغوا عن الشريعة . رحمةً بنفوسكم اربأوا بنفوسكم قبل ان يدنو الاجل . وينقطع الامل . فترون بعد هذه الحياة أيّ منقلب تنقلبون . . وما الموت ببعيدٍ عنكم . وما الحياة لكم بخالدة . بل هي كبخار يظهر قليلًا ثم يبيد مضمحلًا . . . .

وحياةُ الدنيا نسمّى حياةً مثلا تُحسَبُ المجرَّةُ نهرا

---

# النهضة الكاثوليكية في حلب

## والرسالات الفرنسويَّة في القرن السابع عشر

للاب فرنسوا تورنيز اليسوعي (تتمة)

### ٣ الطوائف الحلبية في حلب من السنة ١٦٥٠ الى ١٧٠٠ (تابع)

ظهرت النهضة الكاثوليكية بنوع اجلى في حلب في طائفة الروم الملكيين وقد بيّنا سابقاً ما جرى على يد المرسلين في ايام السيد ملاطيوس كرمه الحموي فلمّا صار بطريركاً وانتقل الى دمشق ورث عنهُ خلفهُ السيد ملاطيوس زعيم (١٦٣٥—١٦٤٨) ميلهُ الى الكثلكة ورخص للرهبان الفرنسويين ارشاد ابنـاء طائفتهِ على مقتضى تعاليم الكنيسة الرومانية . وكان لهُ قدوة في البطريرك اقتيموس الصاقزلي (١ الذي كان يجلّ الرهبان اليسوعيين في دمشق ويسلّمهم مدارس طائفتهِ ويرتشد بمشورتهم . وممن وقف نفسهُ على نشر الكثلكة بين روم حلب في ذلك الوقت الارشدياقون ميخائيل بجمع تلميذ المرسلين ثمَّ وهبهُ داود اوّل تلامذة مجمع انتشار الايمان الذي عاد الى الشهباء سنة ١٦٦١ فكلاهما عضد المرسلين في اثبات الحقائق الكاثوليكية ونَفي ما كان سابقاً من النفورِ بين الكنيستين ولم تثنِ عزمها الشدائد التي لقياها في سبيل غايتها . وكان السيد مكاريوس زعيم يزيد كل يوم تقرُّباً من الدين الكاثوليكي حتى انهُ جاهر بهِ غير مرَّة لا سيما لما جلس على كرسي بطريركيَّة انطاكية

---

١) هذا الاسم ورد محرَّفاً باسم اقتيشوس في المقالة السابقة والصواب اقتيموس كما نبَّه اليهِ حضرة الاب المحقّق قسطنطين الباشا في المشرق (٩ : ٦٢٣)

من السنة ١٦٤٨ الى ١٦٧٢. ولدينا رسالته التي ارسلها الى الحبر الاعظم على يد القنصل بيكه سنة ١٦٦١ مقرًّا فيها بخضوعه التام للكرسي الرسولي. وكذلك نُشرت رسالته الى الملك لويس الرابع عشر في الآثار الخطيَّة (١. وبرجوعه وُجد في حلب في وقت واحد ثلاثة بطاركة من الكاثوليك الحديثي العهد بالكثلكة اي البطريرك الرومي الملكي مكاريوس المذكور والبطريرك كاتشادور الارمني والبطريرك اندراوس اخيجان السرياني

وتوطّدت الكثلكة في حلب بين الروم الملكيين في الربع الاخير من القرن السابع عشر فان مطروفان وغريغوريوس استقفي حلب اثنى على ايمانهما المرسلون وقد كتب الثاني رسالةً ضمّنها خضوعهُ للحبر الروماني سنة ١٦٩٨. وفي ذلك الزمان وقع نزاع بين كيرلس الخامس واثناسيوس الرابع في امر البطريركيَّة وكان الاوّل قد اختاره الدمشقيون واختار الحلبيون الثاني وكان كلٌّ منهما يتودّد الى المرسلين ويدّعي بصدق الايمان وان ظهر من كليهما ما يوقع الشكّ في صحة نيَّتهما. على ان الدين الكاثوليكي زاد انتشارًا وتعمّق في قلوب كثيرين بهمة الرهبان الفرنسويين. وبذلك تمهد الطريق لطائفة كاثوليكيَّة محضة لا يمتزج فيها زوَّان الاضاليل الفوطيوسيَّة. وهو الامر الذي جرى فعلًا بعد ذلك بقليل. وفي سجلّات المرسلين جداول تفصيليَّة تعدّد اسماء المرتدّين من كهنة ومؤمنين يؤخذ منها ان عدد الكاثوليك في حلب اناف على عشرين الفًا في اواخر القرن السابع عشر. كانوا كما كورة ثلاث طوائف كريمة دخلت في حظيرة الكنيسة الرومانيَّة فابهجت بيعة الله بثمارها الصالحة

### ٤ الاعمال الرسوليَّة التي قام بها المرسلون من ١٦٥٠ الى ١٧٠٠

عرفتَ من هذا النظر العمومي السابق كيف مهَّد المرسلون الفرنسويُّون الطريق للطوائف الكاثوليكيَّة المستحدثة في الشهباء وكيف اسبغ الله نعمهُ على مساعيهم واتعابهم. وها نحن نعدّد في هذا الباب الاخير المشروعات التي تولّى

---

١) اطلب الآثار الخطيَّة (Rabbath: *Documents*, 1, 459,473)

ادارتها اولئك المرسلون ليرى القرَّاء انَّهم لم يدَّخروا وسعاً في فلاحة كرم الربّ فلا عجب أن اثمرت اعمالهم من الثمار الخلاصيَّة ما نا وزكا من بعدهم فصارت بهمَّتهم الكنائس الشرقيَّة اشبه بتلك الشجرة الباسقة الافنان المظلَّة لطيور السماء بعد ان كانت كحبَّة الخردل اصغر من كلّ الحبوب (مرقس ٤ : ٣١)

انَّ امسّ عملٍ قام به المرسلون عند دخولهم الشهباء ارشاد المؤمنين واثارة عقولهم . وذلك لأنَّ الجهل المطبق لتغلُّب كوارث الزمان كان قد استولى على الاذهان فلم يكد النصارى يعرفون من عقائد الايمان غير القليل الزهيد فاسرع المرسلون بعد أن اقتبسوا كفايتهم من مبادي العربيَّة الى وقف نفوسهم لتعليم الدين فباشروا اوَّلاً بجمع الاحداث ليعلّموهم اصول التعليم المسيحيّ فكان هؤلاء الصغار اذا عادوا الى بيوتهم كرَّروا على مسامع اهلهم ما تعلَّموهُ فارشدوهم الى معرفة دينهم

ثمَّ رأى المرسلون ان يخالطوا الشعب ويفتشوا له العقائد المسيحيَّة ويعدلوا به عن الاضاليل التي كانت نفذت بين العموم بسوء فعل الزمان فجعلوا كلّ ايَّام الآحاد والاعياد يتناوبون في المواعظ والارشادات اوَّلاً في كنيسة الموارنة ثمَّ في كنيسة الارمن والروم فكان الحلبيُّون يتقاطرون الى سماع كلامهم كالعطاش الى ينابيع المياه وكثيرٌ من هذه الاوعاظ والخطب الدينيَّة باقية الى اليوم في مخطوطات توارثها الحلبيُّون ككنز ثمين منها للكرمليين ومنها لليسوعيين او الكبوشيين وقد نُشر بعضها بالطبع بعد ذلك وفي مكتبتنا الشرقيَّة قسمٌ منها في مجلَّدات متقنة الخطّ على ورق صفيق يُعرف باللبَّادي

ولم يكتفِ أولئك الصيَّادون باقتناص الاسماك الروحيَّة المقبلة اليهم بل اخذوا يجولون في بيوت الخاصَّة والعامَّة ليلقّنوا الفقراء مبادئ الدين والآداب ويهذّبوا النساء اللواتي كنَّ في تلك الازمنة مقصورات في بيوتهنَّ لا يستطعن الخروج منها الَّا مخفورات محفَّات فيجمعوهنَّ في دار احداهنَّ ويعلّموهنَّ ما يحتجنَّ اليه لخلاصهنَّ ولتربية اولادهنَّ

واذ وجد المرسلون اقبالاً من اهل الشهباء على تعاليمهم فكَّروا في نشر العبادات الكاثوليكيَّة بينهم فكان المرسلون الفرنسيُّون والكبوشيُّون يحيون

اليهم اكرام آلام السيّد المسيح ورياضة درب الصليب والكرمليّون يشركونهم بثوب العذراء الطاهرة . امّا اليسوعيّون فانشأوا لهم الاخويّات المريميّة التي كادت تعمّ كلّ ابناء الطوائف الكاثوليكيّة

وكانت تلك الاخويّات تجمع اوّلًا نخبة الكاثوليك دون فرق بين طوائفهم فيقيمون الفرائض التقويّة في كنيسة الارمن ثمّ توفّر عدد الاتقياء حتّى اضطرّ المرسلون الى ان يقسموهم فجعلوا شركةً لكل طائفة تجتمعُ مرّة في كنيسة الطائفة فيتلون فرض السيّدة ويحضرون خطبة المرشد ويتفاوضون في امورهم الروحيّة . والحّ شبّان الوارنة وطلبوا ان تُنشأ لهم اخويّة خاصّة فاجاب الى دعوتهم الاب غليوم غوده ( G. Godet ) الذي توفيّ سنة ١٦٥٠ ثمّ اقاموا اخويّة أخرى للاولاد من كل الطوائف طبعت في قلوبهم حبّ الفضيلة منذ حداثة سنّهم

وقد أتت كل هذه الاخويات باعمال جليلة كانت من اعظم الوسائل لبثّ روح التُقى بين اهل حلب . ولدينا السجلّات التي كانوا يدوّنون فيها امور الاخوة ومبرّاتهم من عيادة المرضى وزيارة المحبوسين وتوزيع الحسنات على الفقراء . وكان يتعهّد المشتركون الحياد عن الملاهي ويلزمون لبس الثياب المحتشمة والقيام بفرائض خاصّة من العبادة والاماناة والتقرّب المتواتر من الاسرار

واذ تحقّق المرسلون اليسوعيون ان مثل الفرنج يؤثّر كثيرًا في الشرقيين افرغ الاب جان اميو ( J. Amieu ) كنانة جهده في نشر الفضائل المسيحيّة بينهم فأنشأ لهم اخويّة خاصّة تجتمع في الخان الفرنساويّ . فما لبثت هذه الجمعيّة ان نمت واتّسعت فدخلها كبار التجار الذين اضحوا قُدوة صالحة لكل اهل حلب فكانوا يثابرون على الاسرار ويتبرّعون بمالهم على ذوي البأساء ويصلحون بين الاعداء ويؤيدون الايمان في قلوب الضعفاء

وممّا ساعد على نموّ اخويّة الفرنج في حلب انّا انضوى اليها القنصل فرنسوا پيكه فاظهر من التقى والورع والغيرة المتّقدة في خير القريب ما كان يعزّز الدين الكاثوليكيّ في اعين الجميع وقد اتّفق الاخوة فانتخبوه كنيس لشركتهم الصالحة فتمّم واجباته بنشاط لم يعهدوهُ في غيره . وعليه لم يشاؤوا ان يقام رئيس آخر بدلًا منه . ولمّا خلفهُ

المسيو فرنسوا بارون في منصبه اراد ان يتقفَّى آثار خلفهِ في تقواهُ وطلب مثلهُ ان يُدرَج اسمهُ في عداد الاخوة .

ثم توفي الاب جان اميو مرشد اخوية الفرنج فتولَّى ادارتها راهب آخر يشبههُ في غيرتهِ وفضلهِ الاب جلبرت ريغو (Gilb. Rigault) الذي بلَّغ الشركة ذروة كمالها حتَّى انَّ اهل حلب كانوا يشيرون بالبنان الى اعضائها ويثنون عليهم اطيب الثناء.

وكان المرسلون مع اهتمامهم بالارواح لا تفوتهم الاجساد فكانوا لا يكفُّون في حلب عن مساعدة الفقراء لا سيما اولئك الذين كان الدهر بعد الغنى ورغد العيش اخنى عليهم وألصقهم بالدقعاء فيخجلون من الاستعطاء . فكان المرسلون يقتسمون معهم قوتهم اليومي ويحنُّون عليهم قلوب مواطنيهم الفرنج

وقد رأيت في ما سبق انَّ اهتمامهم بالمتوعين والمرضى كان بالغاً جدًّا حتَّى انَّ بعضهم كانوا تفرَّغوا لدرس الطبّ كي يعالجوا الامراض ويداوُوا اوجاع المتوعين فكانوا اذا خرجوا من ادويتهم تزاحم حولهم الحلبيُّون وطلبوا منهم الادوية لأدوائهم او لعلاج ذويهم

وكان حنانهم على المرضى يزيد خصوصاً لدى تفشّي الطاعون فهذا الوباء كما مرَّ بك كان يتناوب على حلب فيرمي اهلها بسهامهِ القتَّالة اما المرسلون فكانوا يتفانون في علاجهم قدر استطاعتهم ويعرضون بنفوسهم الى خطر الموت بطيب القلب حاسبين موتاً كهذا في سبيل القريب شبيهاً بنعمة الاستشهاد

ومن اعمال المرسلين المشكورة في حلب خدمتهم للعبيد . وكان بين هؤلاء قومٌ ممَّن أُسروا في الحرب فبيعوا كالرقيق ومنهم مَن استولى عليهم القرصان في البحر فاستعبدوهم . وكان كثير من اولئك المنكودي الحظّ نصارى في خدمة سادة من غير ملَّتهم لا يسمحون لهم غالباً بان يمارسوا فرائضهم الدينيَّة . فالمرسلون كانوا يحثُّون بهم ويجتمعون بهم سرًّا ليثبتوهم في ايمانهم او يردُّوهم اليهِ اذا رأوهم جحدوا معتقدهم وقد رووا في رسائلهم اخبار عدد من اولئك العبيد الذين ارشدوهم ثمَّ افتكُّوهم من اسرهم او حملوهم على المجاهرة بدينهم . فنالت بعضهم محن وشدائد قاسوها بكل بسالة وصبر جميل . منهم يولونيٌّ اراد سيّدهُ ان يصنع بهِ الفحشاء فلم يجد الشاب وسيلة لأن ينجو من هذا الخطر الَّا بقتل سيّدهِ فحُكم عليهِ

بالموت فمات راضياً مسلماً امرهُ الى الله في ١٢ شباط سنة ١٦٦٠ فبقي جسمهُ عشرة ايَّام في مكانهِ بلا فساد لم تمسَّهُ وحوش الصحراء ولا كواسر الطير بل كانت تفوح منهُ رائحة عطرة حتَّى دفنهُ بعض المسلمين باكرام لما تحقَّقوا من براءتهِ (١

وكما مات هذا الشابّ شهيد عفَّتهِ استشهد غيرهُ حبًّا بايمانهم منهم داود الحلبيّ الروميّ الذي أشهب معاصروهُ في وصف بسالتهِ وموتهِ الصالح (٢ . وكان هذا متولّياً لجمع الخراج من نصارى حلب فضمن عليهِ احد ابناء ملَّتهِ والبسهُ يوماً عمامة خضراء دون علمهِ ليرهم المسلمين أنَّهُ جحد دينهُ فلمَّا علم داود بصحَّة الامر ألقى عنهُ العمامة نافرًا فكان ذلك داعياً الى قتلهِ كأنَّهُ بفعلهِ اهان الدين الاسلاميّ او ارتدَّ عنهُ بعد الاقرار بهِ . وتفاصيل استشهادهِ قد رُويت في ترجمة القنصل بيكه بنوعٍ مؤثّر في القلوب (٣ . ويُخبرّ هناك كيف دخل اليهِ في حبسهِ الراهب الكرمليتانيّ برونو دي سنت ايف (Bruno de St Yves) وارشدهُ الى الدين الكاثوليكيّ وشدَّد عزيمتهُ حتَّى مات ميتة الشهداء بعد مقاساتهِ ضروب المحن في حبسهِ . وكانت وفاتهُ السعيدة في ٢٩ تموز سنة ١٦٦٠ وحضر حفلة جنازتهِ ثلاثة بطاركة وخمسة اساقفة وتقسَّم النصارى ذخائرهُ ثمَّ اشتهر بعد موتهِ بعدَّة كرامات وارتدَّ كلّ اهلهِ الى الدين الكاثوليكيّ ودخل حفيدهُ حنَّا بن تدرس في رهبانيَّة الكرمليتان ودُعي باسم داود دي سان شرل وصار بعد ذلك اسقفاً وقاصداً رسوليًّا على ازمير(٤

ومنهم ايضاً شهيد آخر ارمنيُّ الملَّة كان اسمهُ بأَلي (Baali) فهذا الشابّ كان يتردَّد على المرسلين وكان ينتصر للدين الكاثوليكيّ ويدافع عنهُ بلا خوف فمضى بعض الايَّام اجتمع عليهِ فئة من اشقياء المسلمين الذين اوسعوهُ ضرباً فسبَّ دينهم وكفى ذلك لأن يُرفع امرهُ الى الوالي فحكم عليهِ بان يُحرق حيًّا في حارة النصارى المعروفة بالجديدة ما لم يرضَ بالاسلام فاجاب الشاب انهُ يفضّل الف موت على جحود دينهِ وسار الى الموت فرحاً متهلّلاً كانهُ يسير الى عرس وأُلقي في النار مقيَّداً . فلمَّا

---

١) اطلب الآثار الخطيَّة (Rabbath: *Documents* I, 456)

٢) راجع الآثار المذكورة (Id. I, 457-458)

٣) ترجمة فرنسوا بيكه (Vie de Fr. Picquet, pp. 96-150)

٤) الآثار الخطيَّة (Documents, II, 6)

احترقت قيودهُ قام يتمشَّى في النار كأنهُ لا يشعر بسعيرها فضربهُ الجلَّاد ضربة على رأسهِ كانت هي القاضيـة وكان استشهادهُ في ١٢ تموز سنة ١٦٩٧ وكرَّمهُ الله بالمعجزات كالشهيد دارد السابق ذكرهُ (١

فكلُّ هؤلاء شرَّفوا الايمان الكاثوليكيَّ بثباتهم وعزَّوا قلوب المرسلين بقدوتهم الصالحة التي قدَّموها لمواطنيهم . ولا غرو ان ترى بعـد ذلك نموَّ عدد الكاثوليك في الشهباء حتى انهم بلغوا نيفاً وعشرين الفاً في اواخر القرن السابع عشر بعد ان كانوا بضع مئات عند وصول المرسلين سنة ١٦٢٥ . وفي الآثار الخطيَّة التي نشرها الاب انطون رباط رسائل جمة تثبت ذلك تفصيلاً واجمالاً (٢

وما كان المرسلون يكتفون بنصارى الكنائس المنفصلة بـل كانوا يشملون بهمَّتهم كلَّ الضالين بـلا تمييز كالبروتستانت التاجرين في حلب من انكليز وهولنديين (٣ وغيرهم بل رغب اليهم بعض الموحدين ان يرشدوهم ففعلوا

وكان في حلب قومٌ من اليزيدية عبدة الشيطان والشمسيَّة عبدة الشمس وبدعة هنديَّة تُدعى بانيان فالمرسلون لم يشاؤوا ان يُحرم هؤلاء من نعمة الايمان فكانوا يزورونهم ويعودون مرضاهم ويسعفونهم في حاجاتهم فاكتسبوا بذلك ثقتهم وبعد حين جعلوا يثبتون لهم بطلان اديانهم وصحَّة المعتقـد الكاثوليكيّ . وكان اليسوعيُّون في مقدِّمـة الذين يهتمون بأولئك الساكين فبارك الله مساعيهم وردَّوا كثيرين منهم الى الدين القويم كما روى الاب بُسُّون في تاريخهِ وقد توفَّق ايضاً الآباء الكرمليُّون الى هداية قوم منهم (٤

ومما يعود فضلـهُ الى المرسلين في القرن السابع عشر انهم مهَّدوا الطريق في الشهباء المعيشة الرهبانيَّة . فانَّ غوائـل الزمان كانت أنست بين النصارى تلك

---

١) وردت تفاصيل استشهادهِ في سجلَّات الآباء الكرمليين في حلب (Documents II, 24-29)

٢) الآثار الخطيَّة (Id. II, 27-29,66,73,86. etc)

٣) الآثار الخطيَّة (Id. II, 6)

٤) اطلب (Besson: *Syrie et Terre Sainte*, 50-52) ثم راجع الآثار الخطيـة (Documents I,400,512)

البيئة الفضلى التي دعا اليها السيد المسيح النفوس الممتازة بتقاها فالمرسلون الفرنسويون اذ باشروا بزرع الفضائل المسيحيّة في القلوب ما لبثوا ان وجدوا بين تلاميذهم رجالًا ونساء يتوقون الى الزهد في الدنيا ويرغبون في الانقطاع الى خدمة الله وتضحية نفوسهم في اعمال التنسك فاخذوا يصرفون عنايتهم الى اولئك المتورّعين فكانوا يحضّونهم بالارشادات التقوية والفرائض النافلة وممارسة الفضائل الرهبانيّة وربّما يصحّ لهم ان يجمعوهم في اديرة خاصّة . من الآثار الباقية من ذلك العهد ما رواهُ الاب الكبوشي يستنيان دي طور (١ قال انّ آباء رهبانيّته في حلب علّموا عدّة بنات من اهلها ان يتبعن قوانين مار فرنسيس وكنّ يعشن كراهبات في بيوت الخاصّة وهنّ يمارسن كلّ فرائض الرواهب لا يخرجن من بيوتهنّ الّا لحضور القداس في الكنيسة وكنّ في العزلة يلبسنَ الثوب الرهبانيّ

وبعد حين اجتمعت بنات غيرهنّ من الارمن والسريان بلغ عددهن ٢٣ فطلبن من بطريرك السريان اندراوس اخيجان ان يلبسهنّ الاسكيم الرهبانيّ فالسيّد الجليل وكل امرهن الى رئيس الكبوشيين الاب جان دي سنت انيان (J-B. de S^t Aignan) فاخذ يرشدهنّ ويستعين بهنّ لكل اعمال التقى والصلاح بين نساء حلب (٢

وكما نشأت مذ ذاك الحين الرهبانيّة بين النساء الصالحات كذلك شعر بعض اتقياء الشبّان بدعوة الله الى التوحّب غير ان الامر لم يتمّ لهم الّا بعد بضع سنوات في العشر الاوّل من القرن الثامن عشر ومنهم كانت الرهبانيّات اللبنانيّة المارونيّة البلديّة والملكيّة الشويريّة . على انّ بعض اولئك الشبّان سبقوهم فانتموا الى رهبانيّات غربيّة كالاخ اليّا الارمني السابق ذكرهُ والاب المكرّم ابراهيم برجس الماروني اليسوعي الذي مات شهيداً في مصوّع سنة ١٦٨٣

ومن الاعمال التي باشرها المرسلون في حلب مدارس الاحداث . وكانت اوّل مدرسة فتحوها في حي الجديدة في دار كنيسة الروم تولّى تدبيرها الاب اليسوعي جيروم كويرو (J. Quyrot) سنة ١٦٢٨ فبلغ عدد طلبتها في السنة التالية ٣٠ طالباً

---

١) اطلب كتابهُ مرسح تركيا (Théâtre de la Turquie, p. 467)

٢) الآثار الخطيّة (Documents I, 422-423)

كان الاب يعلّمهم العربيّة والايطالية واليونانيّة (٢ . لكنّ اعداء اليسوعيين اضطرّوهم الى العدول عن التعليم مدّة ثمّ عادوا الى تهذيب الشبيبة بعد خمس سنوات ففتحوا مدرسة اخرى مختلطة من اولاد كل الطوائف ذكروها مرارًا في رسائلهم . وكذلك الكرمليّون فتحوا مدرسة علّم فيها الاخ الياس المنتمي الى سيّدة الكرمل وكان هذا حلبيًا من طائفة الارمن فكان يعلّم العربيّة والايطاليّة لنحو عشرين ولدًا. ومثلهم الكبوشيّون اداروا مدرسةً للناشئة الحلبيّة ورد ذكرها في رسالة لوزير ملك فرنسة لويس الرابع عشر (١

ولا شكّ انّ هذه المدارس لم تتجاوز في اوّل امرها مبادئ التعليم اي الكتابة والقراءة في العربيّة والايطاليّة والفرنسويّة مع اصول الدين وقواعد الحساب لكنها كانت نعمةً سابغةً في مدينة كحلب حيث كادت الآداب تُطمَس بعد ازدهارها. فاضحت كفاتحة عصر جديد فلن يمرّ على تلك المكاتب مئة عام حتى تصير الشهباء كمهد للنهضة الادبيّة بين نصارى الشام فمنها تنتشر الى بقيّة الانحاء.

بل نرى المرسلين يخصّون قسمًا من زمانهم للكتابة والتأليف فكانوا بذلك قدوةً للطوائف الشرقيّة. وشرعوا اوّلًا بتصنيف الكتب الدينيّة كالتعليم المسيحيّ وكتب الصلوات والتأمّلات وشرح العقائد الكاثوليكيّة والدفاع عن الدين القويم وقد اشتهر اليسوعيّون في ذلك فمذ دخلوا حلب درسوا لغة اهلها واسرعوا الى كتابة التآليف الروحيّة . منهم الاب حبيب شيزو الذي ألّف كتبًا عديدة ونقل غيرها الى العربيّة والارمنيّة والفارسيّة قيل انّ عدد مصنفاته او منقولاته بلغ الاربعمائة (٢ . ومثلهُ الاب جان امير الذي عُني بتأليف كتب دينيّة في العبادة الى البتول وفي اكرام القديس يوسف ونقل كتاب الكردينال ريشليو في الكمال المسيحي وزيّف اضاليل المبتدعين (٣. وكذلك الاب ميشال نو (M. Nau) لهُ عدّة تآليف دينيّة منها كتاب الدلالة اللامعة ( راجع مقالة حضرة القس جرجس منش ص ٥٢٣ ). وصنف الاب بوازو (Boisot) كتبًا منها ترجمة حياة القديس فرنسيس كسفاريوس

---

١) اطلب الآثار الخطية (Documents I, 380)

٢) الآثار الخطية (Id. I, 52,77,379-381,434.517 etc., II, 65)

٣) الآثار الخطية (Documents I, 53,92-63) ٤) الاثار الخطية (Id. I, 437)

وللكرمليين مآثر دينيَّة أخرى منها ما صنَّفهُ مرسلوهم في حلب من التآليف وقد وصف حضرة الاب انستاس الكرملي تلك الآثار في جملة ما عدَّدهُ من مصنَّفات اخوتهِ في الشرق واضافها اليها اسماء كتب أخرى فاتتهُ ( المشرق ٩ : ٨٣١ــ٨٤٤ )

ومثلهم الكبوشيُّون والفرنسيسيُّون ذُكر لهم في تواريخهم مصنَّفات عُنوا بوضعها او بنقلها (٣

ولم يقتصر المرسلون في حلب عملهم على التآليف الدينيَّة بل صنَّفوا ايضاً عدَّة كتب لغويَّة وادبيَّة وتاريخيَّة وعلميَّة منها قاموس اللغة العربيَّة للاب شيخو وتعريب غراماطيق الاب ألفارس اللاتينيّ لهُ وقاموس آخر في اربع لغات لهُ وقاموس تركيّ لاتينيّ للاب اميو

ومن الخدم التي ادَّاها المرسلون في حلب للعلم انَّهم في رسائلهم لرؤسائهم ومواطنيهم كانوا يتَّسعون في وصف احوال الشرق عموماً وحلب خصوصاً فتجد هناك كنوزاً من المعلومات لا اثر لها في غيرها من الكتب. فمن ذلك وصف حالة الشهباء وابنيتها الدينيَّة والمدنيَّة وعادات اهلها ومرافقها وتجارتها وآدابها ونظامها السياسي ووصف مللها المختلفة حتى يستطيع من درس الباقي من تلك الآثار ان يكتب تاريخاً مطوَّلاً لحلب وجهاتها منذ اواخر القرن السادس عشر الى يومنا

وكان وزراء فرنسة يكاتبون المرسلين ويطلبون منهم ان يفيدوهم في توسيع نطاق الاعمال بين بلادهم والدولة العليَّة. ولمَّا ارادوا ان ينشئوا مكتبتهم الملكيَّة فرعاً لمخطوطات الشرق كان المرسلون الفرنسويون في حلب والاستانة وسطاً لتحقيق امانيهم. ففي رسائل الاب كوريو اليسوعي ما يروي فيها ابتياعهُ لعدَّة مخطوطات عربيَّة وتركية لمكتبة باريس ومساعدتهُ للمستشرق غوليوس (Golius) الهولندي في اقتناء غيرها لمكتبة ليدن (١ ..

وكان اذا لم يمكنهم ان يبتاعوا تلك الكتب ينقلوها الى الافرنسيَّة ويرسلوها

---

١) اطلب تاريخ الرسالة الكبوشيَّة في الشرق للاب هيلار دي برانتون (Hilaire de Barenton, p. 122-124 )

٢) اطلب الآثار المطبوعة (Documents I, 404)

الى وزير الدولة كما فعل الاب نو الذي وقف على تاريخ بطاركة انطاكية الملكيين في حلب فارسل ترجمتهُ لوزير الدولة في فرنسة الشهير كولبار ( Colbert )

وهذه الحركة العلميَّة امتدَّت بمثال المرسلين الى غيرهم من الاكليروس الحلبيّ كالبطريرك مكاريوس زعيم الشهير بتآليفهِ التاريخيَّة والطقسيَّة (١ والخوري بطرس التولويّ الذي ترجمهُ حضرة القس جرجس منش (٢ وعدَّد تآليفهُ ومنقولاتهِ

وكأنَّ الاعمال السابق ذكرها لم ترو غليل المرسلين فانهم طلبوا حول حلب مدناً وقرىً ينتقلون اليها فيبشّرون اهلها فمن المدن التي شكرت غيرتهم مدينة الاسكندرونة التي كانوا يتردَّدون اليها من وقت الى آخر فيرشدون اهلها ويوزعون عليها الاسرار المقدَّسة ولا يبالون بما يلاقونهُ في ربعها من الامراض والحيَّات. وكانوا اذا وجدوا فيها مركباً راسياً للفرنج زاروهم ودعوهم الى اقسام واجباتهم الدينيَّة. وممَّن امتاز بهذه الاعمال الخيريَّة الابوان شيزو ورينو (٣. وكذلك زاروا اهل كلس وانشأوا بينهم اخويَّة العذراء فاخذ عدد الكاثوليك ينمو فيها منذ ذاك الحين. ومن حلب خرج مرسلون آخرون فتقدَّموا الى جهات ما بين النهرين كالاب ميشال نو الذي رحل الى ماردين ليردَّ ما فيها من اليعاقبة. وكبعض الآباء الكبوشيين الذين ذهبوا الى ديار بكر واورفا فزرعوا فيها بزر الايمان الكاثوليكي

فهذه المشروعات تبيّن علانيةً ما سبقنا وقلناهُ في مقدّمة كلامنا انَّ حلب كانت في القرن السابع عشر مهد الكثلكة في الشرق وان الفضل في ذلك مرجعهُ الى المرسلين الفرنسويين. وان شاء الله نروي في مقالة أخرى ما اتوهُ في مطاوي القرن التالي

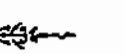

١) الآثار العلميَّة (Id. I, 48)
٢) اطلب المشرق (٦:٧٦٩)
٣) اطلب المشرق (٦:٧٦٩-٧٧٧)